بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . والصلاة والسلام على إمام البلغاء كافة . نبينا محمد عبد الله ورسوله الذي آتاه الحكمة وفصل الخطاب . وعصمه من الخطأ وألهمه الصواب .

تأخر تدوين علوم البلاغة ، شأن معظم العلوم العربية والاسلامية ولكنها كانت محفوظة في صدور الرواة والمحدثين .

وليس معنى هذا أن العلوم كانت معروفة ومتكاملة . بل كانت هناك ارهاصات وإشارات نستطيع أن نعتبرها بواكير في كل علم. وككل علم ، مرت البحوث البلاغية في أطوار متباينة ، وتنقلت في مواطن مختلفة قبل أن يتاح لها استقلالها المميز . فأول ما كان من هذه البواكير تلك الملاحظات النقدية والاستهجان والاستحسان التي كان يبديها السامعون في محافل الإنشاد . لهذا السبب لا نستطيع معرفة الإشارة الأولى في هذا الصدد ، ولكننا نستطيع القول إنها كانت قديمة ، بل موغلة في القدم .

سارت علوم البلاغة والنقد وسواها مسارها الطبيعي من العصر الجاهلي ، وكذلك بعد ظهور الدعوة الإسلامية وما رافق نزول الوحي من جدل ، وبوادر معارضة القرآن الكريم من قبل بعض المهووسين

الموتورين أمثال مسيلمة ، وسجاح التميمية ، وذلك المتكبر الجاحد الوليد ابن المغيرة الذي أثر عنه قوله : « والله إن لكلامه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمورق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول البشر »[1] مع هذا لم يسرع التغيير في عملية تدوين العلوم كافة في العصر الإسلامي ، إلى أن كان العصر العباسي ، ودخول الكثير من أبناء الامم في الاسلام ، وبروز الحاجة إلى تركيز القواعد والأسس التي لم يكن العربي في حاجة إليها ، لأنه ربيب تلك البيئة السليمة اللسان ، الصحيحة النطق ، فلا حاجة لمعرفة حركات أواخر الكلمات لمعرفة العامل ، أو ما نعرفه اليوم محلها من الإعراب ، ولكن ، اتساع رقعة الدولة ، وتشعب العلوم ، وانتشار الآراء النقدية ، واختلاف المواقف منها . . إلى غير ذلك من الأسباب ، كل ذلك دفع الموهوبين من أبناء الأمة إلى التفكير بجمع شتات الملاحظات النقدية ، والآراء المختلفة ، واستخراج ما يمكن استخراجه من نظريات شاملة جامعة قدر المستطاع ، وصولاً إلى تقعيد هذه النظريات وتقنينها ، فكانت بوادر علوم البلاغة مع بزوغ شمس القرن الثالث ، وقد كان لكل طائفة من العلماء إسهام في ارساء قواعد العلوم التي تخدم علوم القرآن ، من هذه الطوائف المفسرون ، أمثال أبي عبيدة (٢١٠ هـ) وابن قتيبة (٢٧٠ هـ) ؛ والمتكلمون ، أمثال الجاحظ (٢٥٠هـ) واستاذه النظام ، وقد كان لكل منهم موقف وقد شايعه عليه آخرون لا مجال لذكرهم ، ثم تأتي طائفة النحاة وكان إمامهم ابن جني ، وأخيراً وليس آخراً الفقهاء والاصوليين الذين كانت لهم جهود بلاغية ، ومن أمثلة أعمالهم ما ذكره الامام الشافعي (٢٠٤هـ) في « الأم » ، وكل ذلك واضح من أنواع التفاسير التي وضعوها خدمة للكتاب الكريم .

حينما جاء القرن الثالث كان النقد قد تقدم خطوات إلى الأمام ،

---

(١) مقدمة علوم البلاغة (المراغي) ص ٦ .

ولم يقتصر على لمحة خاطفة أو إشارة عابرة . ودليل قولنا كثرة المؤلفات التي ظهرت ، واستمرت بالظهور ابتداء بطبقات ابن سلام (٢٣٢) وانتهاء بكتاب الوساطة للجرجاني (٣٩٢ هـ) . وذلك على مدى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، مروراً بمؤلفات : ابن قتيبة ، وابن المعتز ، وابن طباطبا ، وقدامة بن جعفر والآمدي وسواهم .

كل هذه الأعمال كانت تتناول المسائل البلاغية والجمالية ، وكانت. إلى ذلك ، إرهاصات تبشر بظهور قواعد علم طال انتظاره . وكانت بدايته مع ابن قدامة والجاحظ ، ثم تتبلور مع أبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) في كتاب « الصناعتين » لأنه كان أول كتاب يحمل في تبويبه وطريقة بحثه ملامح تباعده عن كتب النقاد ، وتقربه من كتب البلاغيين اللاحقين .

وأول محاولة ناجحة أتى بها عبد القاهر الجرجاني (٣٧٤ هـ) ،في كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » وبهما أصبح بحق إمام البلاغيين ، ولا سبيل إلى تقريظ كتابيه في هذه العجالة ، ويكفي القول إنهما الأساس الذي عليه أرسى السكاكي (٦٢٦ هـ) قواعد القسم الثالث من كتابه « مفتاح العلوم » في البلاغة ، بعد الاستفادة من التلخيص الذي وضعه الرازي (٦٠٦ هـ) على كتابي الجرجاني والمسمى « نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » .

لم يقتصر عمل السكاكي على ما في كتب الجرجاني . بل استدرك ما فات عبد القاهر ، وتمم ما بدأه من تمييز الأنواع الملتبسة . وتقرير القواعد التي جعلت من البلاغة علماً ثابت الأصول ، بعد أن رتب المسائل وبوبها تبويباً جعلها أقرب إلى الدقة والإحكام ، والملاحظ أنه حاط بحوثها بالجدل والفروض الخيالية . واستند إلى العقل في استنباط القواعد في التي كان يجب استمدادها من الشواهد العربية المختارة .

إذن كان عمل السكاكي اشمل ، فقد أحاط بكثير من قواعد البلاغة المبعثرة في الأمهات ، وبعد الترتيب والتبويب ، فصل فنون البيان ، وذلك لسعة اطلاعه وتمكنه من علوم المنطق والفلسفة ، واهتمامه بهما إلى حد جعل أسلوبه جافاً ، فاستغلق فهمه في أكثر الاحيان على غير المتعمقين .

لم نقصر حديثنا على المشتغلين في هذه العلوم في الشرق ، بل كان هناك أئمة أعلام في المغرب العربي توازي أعمالهم أعمال المشارقة ، ونذكر منهم ابن رشيق القيرواني (٤٥٦ هـ) صاحب « العمدة » وابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) صاحب « سر الفصاحة » المعاصرين للجرجاني ، والوزير ضياء الدين بن الأثير الجزري (٦٣٧ هـ) المعاصر للسكاكي ، وصاحب كتابي : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، و « الجامع الكبير » .

عند السكاكي توقفت البحوث البلاغية،واقتصرت من بعده على عمل التلخيصات والاختصارات،حيث بدأها الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) عمل بكتابه : « التلخيص في علوم البلاغة » ، ثم شرحه في « الإيضاح في علوم البلاغة » .

ثم انتقلت إلى عمل الشروحات ، كما هي الحال مع سعد الدين التفتازاني (٧٩١ هـ) في كتابه « المطوّل » الذي وضعه شرحاً لتلخيص المفتاح ، ثم تتابع مع السيد الجرجاني (٨١٦ هـ) .

وبعد هذه الكوكبة من العلماء اقتصرت الأعمال على اعادة الاختصار ومن ثم الشرح من جديد ، وكلها تدور حول كتب الخطيب ، ولم تظهر دراسات تضارع كتب السابقين ، مع محاولة الاستفادة من بعض المناهج الغربية . والمطلوب ، بعد كل هذا العودة إلى الاصول ، والتبحر في علوم اللغة والأدب والبلاغة ، تمهيداً لدراسة أساليب الكتاب في عصرنا . على هدى من مفاهيم النقد القديمة والحديثة ، وإضافة ما استجد منها ،

إذا كان هناك من آثار متجددة ، أصيلة ، وبالتالي استنباط القواعد والقوانين المتجددة . أما الدعوات إلى الابتعاد عن اللغة وفهم دقائقها ، والعمل في خدمة نصوصها فهو من الامور المستهجنة التي لا تبعد عن أصحابها الهوى والغرض في التهديم خدمة لأعداء الأمة والدين .

« اللهم ... إن الصادّ عن معرفة اللغة ، وأسرار العربية صادّ عن تعرُّف كتابك . وأسرار شريعتك ؛ فسواء من أعدم الناس الدواء الذي يشفي من الداء ، وتستبقى به حشاشة الأنفس ، ومن أعدمهم العلم بأن فيه شفاء . وأن لهم فيه استبقاء » .

من هذا المنطلق ، كان هدفنا ، مع صاحب الدار ، في إخراج هذا الكتاب ووضعه في متناول العاملين في خدمة العربية وأسرارها ، في حلة جديدة ، بعد أن كان إخراجه في الطبقات السابقة يجهد القارىء ويدفعه للملل ، وبالتالي يصرفه عن التمتع بما حواه وقدمه من جليل الفائدة ، وحري بنا ، قبل تقديم لهم التعريف بصاحبه ، وبما اشتملت عليه دفتاه من علوم .

والله الموفق وهو من وراء القصد
شحيم في ٨٣/٦/٣
نعيم زرزور

السكاكي وكتابه « مفتاح العلوم »

٥٥٤ — ٦٢٦ هـ.

يوسف بن أبي بكر محمد ، أبو يعقوب السكاكي ، من أهل خوارزم علاّمة ، إمام في العربية والمعاني ، والبيان والأدب ، والعروض والشعر ، متكلم فقيه في علوم شتى ، وهو أحد أفاضل علماء العصر الذين سارت بذكرهم الركبان .

إمام ، فت في عضده حب الفلسفة ، فعمد إلى علوم العربية ، ووضع كتاب « مفتاح العلوم » بعد اطلاعه على أعمال أسلافه ، وتميز عنهم بحسن التبويب ، ودقة الترتيب ، فأتى كتابه شاملاً لعلوم : الصرف ، والاشتقاق بفروعه الثلاثة ، والنحو ، وعلوم البلاغة بأقسامها : علم المعاني ، وعلم البيان ، ثم تحدث فيه عن علم الحد وعلم الاستدلال ، وعلم العروض واختتم بعلم القافية . وهي بمجملها علوم يحتاجها كل دارس لعلوم العربية ، سواء في مجالي الابداع أو النقد .

فقد عمد إلى أمهات الكتب لمن سبقه ، فجمع زبدة ما كتبه الأئمة ، في هذه الفنون ، وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة ، ورتبها أحسن ترتيب ، وبوبها خير تبويب .

ولولا أنه أولع بتطبيق أساليب العرب على علوم اليونان واصطلاحاتهم ، مع ما بينهما من بعد الدار وشط المزار ، واختلاف البيئات ، وتباين

المواقف ، لكان خير كتاب أخرج للناس في هذه الفنون ، لجمعه شتاتها ، وضمه ما تفرق من قواعدها ..

وبجليل فائدته عمدت الدار إلى إخراجه من جديد ، بحلة تقربه من قارىء العصر ، فعمدت إلى مادته واستخرت الله بالعمل فيه ، فحاولت التعريف ببعض الأعلام ممن ورد ذكرهم في تضاعيف الكتاب ، وكان الاهتمام بآيات الذكر الحكيم فبينت مواقعها من كتاب الله العزيز ، وكذلك ، وفي محاولة لاظهار أفكار المؤلف ، وضعت للمقاطع المختلفة عناوين جديدة تلفت النظر اليها ، خدمة للقارىء الذي قد يلفته موضوع منها ويشغله عما سواه .

وإن كان من كلمة أخيرة في هذا المجال ، فهي دعوة النقاد ، والدارسين ، بل والمبدعين في أساليب العربية ، إلى محاولة دراسة هذا الكتاب ثم التوجه إلى ما تنتجه قرائح أبناء هذه الأمة المعطاء ومحاولة الخروج بنظريات نقدية ، أو معايير جديدة تترسم خطى الأوائل ، ولا تبخس حق المتأخرين ، وذلك لربط الماضي بالحاضر ، لعلنا نعود إلى تبوأ مكاننا بين بناة الحضارة في عصرنا والعصور التالية .